لنبيّن لكم: لنبيّن لكم قدرتنا على ما نشاء ونعرّفكم ابتداءنا خلقكم(١)

ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مسمىّ: أي وتارةً تستقرّ في الرّحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها كما قال مجاهد(٢) قال ابن زيد: الأجل المسمّى إقامته في الرّحم حتّى يخرج(٣)

ثمّ نخرجكم طفلا: ثمّ نخرجكم من أرحام أمّهاتكم إذا بلغتم الأجل الّذي قدّرته لخروجكم منها طفلاً صغارا. ووحّد الطّفل وهو صفةٌ للجميع لأنّه مصدر مثل عدل وزَوْر(٤)

ثمّ لتبلغوا أشدّكم: ثمّ لتبلغوا كمال عقولكم ونهاية قواكم بعمركم(٥)

ومنكم من يتوفّى: ومنكم أيّها النّاس من يتوفّى من قبل أن يبلغ أشدّه فيموت(٦)

ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئا: ومنكم من ينسأ في أجله فيعمّر حتّى يهرم فيردّ من بعد انتهاء شبابه وبلوغه غاية أشدّه إلى أرذل عمره، وذلك الهَرَم، حتّى يعود كهيئته في حال صباه لا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئا (٧)

وترى الأرض هامدة: وترى الأرض يامحمّد يابسةً دارسة الآثار من النّبات والزّرع. وأصل الهُمود الدّروس والدّثور. ويقال منه: همدت الأرض تهمُد

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٠

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٦

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٠

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٠ وجاء في لسان العرب (زور) : «والزَّور: الّذي يزورك. ورجلٌ زورٌ وقومٌ زورٌ وامرأةٌ زورٌ ونساءٌ زورٌ ، يكون للواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث بلفظٍ واحدٍ لأنّه مصدر . . . وفي الحديث: إنّ لزورك عليك حقّا. الزّور: الزّائر. وهو في الأصل مصدرٌ وضع موضع الاسم كصَوْم ونَوْم بمعنى صائم ونائم»

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ٩١

(٦) تفسير الطّبرى ١٧/ ٩١

(٧) تفسير الطّبري ١٧/ ٩١

هموداً(١)

فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت: تحرّكت بالنّبات (٢)

وربت: ربا: زاد وعلا (٣) أي ارتفعت وزادت (٤) والرّبو هو النّماء والزّيادة (٥)

وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج: وأنبتت هذه الأرض الهامدة بذلك الغيث من كلّ نوعٍ بهيج. يعنى بالبهيج البَهِج وهو الحَسَن(٦)

ذلك: هذا الّذي ذكرت لكم أيّها النّاس من بدئنا خلقكم في بطون أمّهاتكم ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده طفلاً وكهلاً وشيخاً هَرِماً وتنبيهناكم على فعلنا بالأرض الهامدة بما ننزل عليها من الغيث(٧)

بأنّ: بسبب أنّ (٨)

يخاطب السّياق النّاس، كلّ النّاس، وفي مقدّمتهم المنكرون للبعث الّذين يجادلون في دين الله تعالى بغير علم والّذين اتّخذوا الشّياطين أولياء من دون الله تعالى، يخاطبهم السّياق ويبيّن لهم مظهراً من مظاهر قدرة الله تعالى متعلّقاً بأطوار خلق الإنسان، كي يستدلّوا بالقدرة على الخلق ابتداءً على القدرة على الخلق إعادة.

يقول السّياق: ياأيّها النّاس إن كنتم في شكّ من البعث يوم القيامة والحساب والجزاء، يسبب استبعادكم عودة الحياة مرّةً أخرى إلى الأجساد الّتي غدت عظاماً

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٩١

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٩١

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ربو» ١٨٧

(٤) الجلالين

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ٩١

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٩١

(٧) تفسير الطّبري ١٧/ ٩١

(٨) الجلالين

ورفاتاً، فإنّا نقدّم لكم الدّليل على قدرتنا على ذلك. وهذا الدّليل يعود بكم إلى المراحل الّتي مرّ بها خلقكم حتّى أصبحتم الآن تعون ما يقال لكم. إنّا قد خلقناكم أساساً من ترابٍ في هيئة أبيكم آدم عليه السّلام الّذي خلقناه ابتداءً من طين ثمّ نفخنا فيه من روحنا. ولمّا كانت حوّاء عليها السّلام قد خلقها الله تعالى من ضِلَع آدم عليه السّلام ليسكن إليها فإنّ ذرّيّة آدم عليه السّلام وذرّيّة بنى آدم جميعهم قد خلقهم الله تعالى من نطفة الرّجل الّتي يقذفها في رحم المرأة ومن ثَمَّ يكون الحمل ومرور الجنين بالمراحل الّتي أشار إليها السّياق.

إنّ النّطفة تتحوّل بإذن الله تعالى علقةَ أي دماً جامداً (١)

ثمّ تتحوّل العلقة مضغةً، أي قطعةً من لحمٍ كأنّها ممضوغةٌ بالأسنان. وهذه القطعة من اللّحم أو المضغة تكون مخلّقةً فتأخذ صورة الإنسان وشكله تباعاً، وتكون غير مخلّقة في أوّل أمرها. وهذا التّبيين للمضغة بأخذها صورة الإنسان وهيئته لنبيّن لكم مظهراً من مظاهر قدرتنا الّتي تَحَدَّيْنا بها كلّ ما يُعْبَدُ من دوننا وبيّنّا أنّهم جميعاً لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له.

ومن مظاهر قدرتنا أنّنا نقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى وإلى انتهاء مدّة الحمل فنخرجكم طفلاً. أمّا الّذي لا نشاء بقاءه في الأرحام فإنّ الأرحام تلفظه وتسقطه في الوقت الّذي نحدّده للأرحام.

وبشأن الّذين يخرجون أطفالاً ونكتب لهم الحياة ينمون حتّى يبلغوا أشدّهم ومبلغ قوّتهم الجسديّة والعقليّة. ومن هؤلاء الأطفال من يموت في الوقت الّذي نشاؤه قبل بلوغ مرحلة الأشدّ، ومنهم من يردّ إلى أرذل العمر وأخسّه من الهَرَم والخَرَف(٢) حتّى لا يعلم ذلك الّذي نسأ الله تعالى له في الأجل شيئاً بعد أن كان بإذن الله تعالى ذا علم وقوّة.

ودليلاً على قدرتنا على إحياء الموتى هذه الأرض الميْتة الهامدة السّاكنة. إنّا

---

(١) الجلالين

(٢) الخَرَف بالتّحريك: فساد العقل من الكبر. لسان العرب (خرف)

إذا أنزلنا على الأرض الماء اهتزّت وتحرّكت بالنّبتة الّتي تشقّ الأرض شقّا، وربت وارتفعت بالزّرع الّذي يُخْرج شطأه وفراخه فيقوى وينمو ويقف على أصوله. وبعد ذلك تنبت الأرض من كلّ زوج بهيج ونوع يملأ القلب بهجةً والنّفس سروراً والعين متعة.

إنّ هذا الّذي ذكرناه لكم من خلقنا لكم وقدرتنا على بعثكم وإحيائنا الأرض الميتة بسبب أن توقنوا بأنّ الله تعالى هو وحده الحقّ وأنّ كلّ شيء خلا الله تعالى باطل، وأنّه عزّ وجلّ على كلّ شيءٍ قديرٌ، وأنّ السّاعة آتيةٌ بإذن الله تعالى ولا شكّ فيها، وأنّ الله تعالى القادر على كلّ شيء يبعث من في القبور أحياء مرّةً أخرى من أجل الحساب فالجزاء. الثّواب في حقّ المؤمنين المتّقين، والعقاب في حقّ الكافرين المجرمين.

ومن الآيات الكريمات الّتي تحدّثت بشيءٍ من التّفصيل في هذه المعاني قول الحقّ جلّ وعلا في سورة المؤمنون(١): ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين(٢) ثمّ جعلناه نطفةً في قرار مكين. ثمّ خلقنا النّطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخر. فتبارك الله أحسن الخالقين. ثمّ إنّكم بعد ذلك لميّتون. ثمّ إنّكم يوم القيامة تبعثون﴾.

ومن البيّن أنّ القول في آية سورة الحجّ: ﴿ثمّ من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبيّن لكم﴾ يبيّنه القول في آية سورة المؤمنون: ﴿فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخر. فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

وإنّ هذه الدّقائق المتعلّقة بعلم الأجنّة والحقائق الموحى بها إلى محمّد بن عبدالله ﷺ قبل زهاء ألف وأربعمائة عام لم يكتشفها العلم إلاّ في العصور المتأخّرة بعد أن تطوّرت بفضل الله تعالى الأجهزة الّتي ساعدت العلماء على الانتهاء إلى تأكيد كلّ الحقائق الّتي قرّرها القرآن الكريم. علماً بأنّ الدّراسات لاتزال موصولة

---

(١) الآيات ١٢ ــ ١٦

(٢) السّلالة: الخلاصة والصّفوة. انظر الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهاني «سل» ٢٣٧

ولايزال كلّ كشفٍ علميّ يؤكّد الحقائق الّتي قرّرها القرآن الكريم. وبهذا يتأكّد أنّ العلم الصّحيح ينسجم دائماً وأبداً مع الحقائق الموحى بها من ربّ العالمين إلى خاتم النبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ (١)

بقي علينا أن نقرّر أنّ العصر الّذي أوحى الله تعالى فيه للمصطفى ﷺ بالقرآن الكريم وسائر الوحي عصر ركودٍ علميّ عالميّ (٢)

وإنّما نشط البحث العلميّ في القرن السّادس عشر، وبدرجةٍ أكبر من القرنين السّابع عشر والثّامن عشر(٣)

وكلّ هذه الحقائق تؤكّد أنّ القرآن الكريم كلام ربّ العالمين، الغفور الرّحيم الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيء، وقد أحاط عزّ وجلّ بكلّ شيءٍ علما.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

---

(١) انظر مثلاً مقدّمة: علم الأجنّة في ضوء القرآن والسّنّة. من مطبوعات هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسّنّة برابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة. بدون تاريخ

(٢) انظر مثلاً ص١٤٥ فما بعدها من كتاب القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم. موريس بوكاي دار المعارف ١٩٧٩م

(٣) علم الأجنّة: ١٥

ثاني عطفه: لاوي عطفه[1] وعطفا الرّجل والدّابّة: جانباه عن يمينٍ وشمال وشقّاه من لدن رأسه إلى وَرِكه[2] وثَنَى عطفه: أعرض. وفي التّنزيل: ﴿ثاني عِطفه ليضلّ عن سبيل الله﴾ قال الأزهريّ: جاء في التّفسير أنّ معناه لاوياً عنقه. وهذا يوصف به المتكبّر. فالمعنى: ومن النّاس من يجادل في الله بغير علمٍ ثانياً عطْفَه أي متكبّرا. ونَصْبُ ثانيَ عطفه على الحال، ومعناه التّنوين كقوله تعالى[3]: ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ أي بالغاً الكعبة[4] عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ثاني عطفه﴾ يقول: مستكبراً في نفسه[5] وإنّ من كان ذا استكبارٍ فمن شأنه الإعراض عمّا هو مستكبرٌ عنه وليٌّ عنقه عنه والإعراض[6]

وهناك فريقٌ آخر من النّاس يجادل في دين الله تعالى ويخاصم في توحيد الله تعالى وألوهيّته عزّ وجلّ بغير علمٍ صحيحٍ ولا هدىً سماويّ ولا كتابٍ منيرٍ موحىً به من ربّ العالمين يهدى للطّريقة الّتي هي أقوم.

وهذا الفريق من النّاس هو الكافر الصّادّ عن سبيل الله تعالى المستكبر والمتغطرس، ولهذا هو يُعْرِض بجانبه، ويلوى عنقه، ويشمخ بأنفه، ويفرح بكفره، ويفخر بصدّه الآخرين عن سبيل الله تعالى. إنّ له في الدّنيا خزي القتل والأسر والذّلّ والهوان، وله يوم القيامة عذاب الحريق الّذي يذوقه في نار جهنّم ويتقلّب فيه.

وفي ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود يقال له: هذا العذاب المهين الّذي أنت فيه بسبب ما قدّمته يداك في الحياة الدّنيا وسائر أعضائك من سيّىء الأعمال والأقوال، وبسبب أنّ الله سبحانه وتعالى ليس بظلاّمٍ للعبيد بحذف حسنة أو إضافة سيّئة.

---

(١) الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهاني: «ثنى» ٨٢

(٢) لسان العرب: «عطف»

(٣) سورة المائدة ٩٥

(٤) لسان العرب: «عطف»

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٢

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٢

وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ
وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن
ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

ومن النّاس من يعبد الله على حرف: ومن النّاس من يعبد الله على شك[١] وهذا هو المنافق[٢] وحرف الشّيء طرفه وجمعه أحرف وحروف. يقال: حرف السّيف وحرف السّفينة وحرف الجبل. قال عزّ وجلّ: ﴿ومن النّاس من يعبد الله على حرف﴾ قد فُسِّر ذلك بقوله بعده: ﴿فإن أصابه خير﴾ الآية. وفي معناه[٣]: ﴿مذبذبين بين ذلك﴾[٤] عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: ﴿ومن النّاس من يعبد الله على حرف﴾ قال: كان الرّجل يَقْدَم المدينة، فإن وَلَدت امرأته غلاماً ونُتِجت[٥] خيله قال: هذا دينٌ صالح. وإن لم تلد امرأته ولم تُنْتَج خيله قال: هذا دين سَوْء[٦]

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٣ و٩٤
(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٤ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٩
(٣) سورة النسّاء ١٤٣
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «حرف» ١١٤
(٥) نُتِجت بضمّ النّون فهي منتوجة مثل نُفِسَت فهي منفوسة. فتح الباري ٨/ ٤٤٣
(٦) فتح الباري ٨/ ٤٤٢ حديث رقم ٤٧٤٢

لبئس المولى: لبئس الوليّ والنّاصر(١)

ولبئس العشير: ولبئس الخليط المعاشر والصّاحب هو(٢)

ومن النّاس فريقٌ منافقٌ مذبذبٌ بين الإيمان والكفر لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء يعبد الله تعالى على شكٍ وتعلُّقٍ بمدى النّفع الذي يحصل عليه، فهو على حرفٍ وعلى حدود الإيمان والكفر. فإن أصاب هذا الّذي يعبد الله تعالى على حرفٍ خيرٌ من صحّةٍ ومالٍ وولدٍ وجاهٍ وما إلى ذلك اطمأنّ به ورضيت نفسه عنه واستمرّ على إيمانه. وإن إصابته فتنةٌ وابتلاءٌ من الله تعالى في الصّحّة أو المال والولد والأهل وما إلى ذلك انقلب على وجهه وارتدّ إلى الكفر على عقبيه والعياذ بالله.

ونودّ أن نقف قليلاً عند القول: ﴿على حرف﴾ وعند القول: ﴿انقلب على وجهه﴾.

والحرف في الأصل معناه حرف الجبل أو طرفه، وشفير الهاوية، وشفا الحفرة أو الجُرُف. والحرف حينما يكون صُلْباً يُخْشَى على الواقف عليه أن تزلّ به النّعل ويقع في الهاوية. وحينما يكون هشّاً يُخْشى على الواقف عليه أن تزلّ به النّعل من ناحية أو أن ينهار به من ناحيةٍ أخرى. وفي كلّ الأحوال يكون الاتّجاه إلى الأمام والانقلاب على الوجه.

فإذا تحوّلنا إلى القول: ﴿انقلب على وجهه﴾ استطعنا أن نفهم أنّه يفيد المعنى الّذي يفيده الانقلاب على العقبين في مثل قول الحقّ عزّ وجلّ (٣): ﴿وما محمّدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرّسل. أفإن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم. ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزى الله الشّاكرين﴾.

ومع أنّ المعنى واحدٌ في الموضعين إلاّ أنّ ثمّة اختلافاً بينهما في الاتّجاه تبعاً

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٥ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢١٠

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٥ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢١٠

(٣) سورة آل عمران ١٤٤

للحركتين المختلفتين في الموضعين. إنّ القول: ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ يشير في المحسوسات إلى ذلك الشخص الّذي كان أوّل الأمر مقبلاً ومتّجهاً إلى الأمام ثمّ عاد مدبراً وانقلب راجعاً إلى الوراء وعلى عقبيه ومؤخّر قدميه. ولم يكتف هذا المرتدّ بالانقلاب على عقبٍ واحدٍ كي يقال إنّه متردّدٌ ويقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى بل إنّه انقلب على عقبيه وأتبع الخطوة الأولى إلى الوراء، بالخطوة الثّانية إلى الوراء بالقدم الأخرى، ثمّ أتبع الخطوة الثّانية بالثّالثة وما بعدها دليلاً على التّصميم على الارتداد والعودة إلى الكفر والعياذ بالله في مجال المعنويّات.

وهكذا يتبيّن الانسجام والتّناغم بين المحسوسات والمعنويّات في القول: ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ إنّ ثمّة ارتداداً إلى الوراء والعودة إلى حالٍ سابقة في كلٍ من المحسوسات والمعنويّات.

فإذا تحوّلنا إلى القول: ﴿على حرف﴾ تبيّناً أنّ الاتّجاه هذه المرّة إلى الأمام. إنّ مكمن الخطر يقع في التقدّم إلى الأمام وأنّ السّقوط لو وقع عن طريق انهيار الجرف أو عن طريق الوقوع في الهاوية فإنّ اتّجاه السّاقط سيكون إلى الأمام دائماً. وقد جرت العادة في المحسوسات أنّ من تقع له مثل هذه الكارثة أن يسقط على وجهه، وأن ينقلب إلى الأمام، وأن يتقلب في الهواء باتّجاه الوجه.

إنّ هذه الملابسات الّتي تحيط بمن يكون على حَرْف شيء صلب أو هشٍ فيسقط باتّجاه وجهه، أو ينهارُ به ما يقف عليه فيسقط باتّجاه وجهه ويتقلّب في الهواء باتّجاه وجهه أيضا، إنّ هذه الملابسات في المحسوسات هي الّتي نتبيّنها في المعنويّات في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ومن النّاس من يعبد الله على حرف﴾ وهكذا يتبيّن كذلك الانسجام والتّناغم بين المحسوسات والمعنويات في القول: ﴿ومن النّاس من يعبد الله على حرف﴾.

وهذا الّذي يكون على حرف جبل أو طرف حفرة أو شفا هاوية قد يثبت وتكتب له السّلامة في مجال المحسوسات فيكون منه الاطمئنان، وقد تزلّ به النّعل أو ينهار به الجرف فتكون الكارثة. وإنّ هذا الّذي يصحّ حدوثه في مجال

المحسوسات هو الّذي يتحدّث السّياق عنه في مجال المعنويّات.

إنّ هذا الشّاكّ الّذي يعبد الله تعالى على حرفٍ إن إصابه خيرٌ اطمأنّ به وبقي مؤمناً. وإن أصابته فتنةٌ وابتلاءٌ من الله تعالى انقلبَ على وجهه وارتدّ إلى الكفر. إنّه قد خسر الدّنيا لأنّه لا ينال فيها إلاّ ما قد قسمه الله تعالى له ، كما خسر الآخرة لأنّه خسر الإيمان في الأولى. إنّ ذلك هو الخسران المبين حقّا.

إنّ هذا الشّاكّ المنافق بعد أن انقلب على وجهه يدعو من دون الله تعالى ما لا يضرّه لو لم يعبده وما لا ينفعه لو عبده. ذلك هو الضّلال البعيد البيّن. إنّه يعبد من دون الله تعالى من ضَرُّه أقرب من نفعه، وشَرُّه أدنى من خيره. لبئس ذلك المعبود من دون الله تعالى وليّاً وناصراً، وبئس معاشراً وصاحبا.

(٢)
(للمؤمنين المتّقين جنّات النّعيم، وللكافرين الصّادّين عن سبيل اللّه تعالى عذابٌ أليم)
الآيات (١٤ ـ ٢٥)

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

إنّ الله سبحانه وتعالى يدخل الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، وبالإسلام ديناً، وعملوا الصّالحات، حدائق تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار. إنّ الله تعالى يفعل ما يشاء بإكرام الطّائعين وإهانة العاصين.

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

من كان: من النّاس (١)

يظنّ: يحسب (٢)

أن لن ينصره الله في الدّنيا والآخرة: أن لن ينصر الله محمّداً في الدّنيا والآخرة (٣)

فليمدد بسبب: فليمدد بحبل (٤) والسَّبب: كلُّ شيء يُتَوَصَّلُ به إلى غيره (٥) وقال أبوعبيدة: السَّبب كلّ حبل حَدَرْتَه من فوق. وقال خالد بن جَنَبَةَ: السَّبب من

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٥

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٥

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٥

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٥

(٥) لسان العرب: «سبب»

الحبال القويّ الطّويل. قال: ولا يُدْعى الحبلُ سبباً حتّى يُصْعَدَ به ويُنْحَدَرَ به. وقيل: لا يُسَمَّى الحبل سبباً حتّى يكون طرفه معلّقاً بالسّقف أو نحوه(١)

إلى السّماء: يعنى سماء البيت وهو سقفه(٢) وقوله عزّ وجلّ: ﴿من كان يظنّ أن لن ينصره الله في الدّنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السّماء﴾ معناه: من كان يظنّ أن لن ينصر الله سبحانه محمّداً ﷺ حتّى يظهره على الدّين كلّه. فليمت غيظاً. وهو معنى قوله تعالى: ﴿فليمدد بسببٍ إلى السّماء﴾ والسّبب: الحبل. والسّماء: السّقف(٣)

ثمّ ليقطع: ثمّ ليختنق(٤) ثمّ ليختنق به. وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم(٥) وهذا هو قول ابن عبّاس الّذي رجّحه ابن كثير على غيره فقال: «وقول ابن عبّاس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التّهكّم»(٦) أي لِيَمُدَّ الحبل حتّى ينقطع فيموت مختنقا(٧)

فلينظر هل يذهبنّ كيده ما يغيظ: عن ابن عبّاس: ثمّ ليختنق فلينظر هل يذهبنّ كيده هذا الّذي صنع ما يجد من الغيظ(٨)

من كان من النّاس يظنّ أنّ الله سبحانه وتعالى لن ينصر حبيبه محمّداً ﷺ في الدّنيا، كأن يظهر دينه على الدّين كلّه، وفي الآخرة، كأن يكون عليه الصّلاة والسّلام صاحب المقام المحمود بالشّفاعة ، وكأن تمثّل أمّته عليه الصّلاة والسّلام أكثر أهل الجنّة، فليمت بغيظه وكمده، وليمدد بحبلٍ إلى سقف بيته، وليطوّق به

---

(١) انظر لسان العرب: «سبب»

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٥

(٣) لسان العرب: «سبب»

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٥

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٠

(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٠

(٧) لسان العرب: «سبب»

(٨) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٦

عنقه، وليختنق به نَفْسَه، ولْيَقْطع به نَفَسَه، وليمت، ولينظر هل يذهبنّ كيدُه ما أغاظه، وقتلُه نَفْسَه كمده. إنّ الكافرين لا يزدادون إلاّ غيظاً وكمداً، لأنّ الله تعالى ناصرٌ دينه دائماً وأبداً.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

وهكذا ينزل الله تعالى القرآن الكريم الّذي يهدى للّطريقة الّتي هي أقوم آياتٍ بيّناتٍ وحججاً واضحات. والله سبحانه وتعالى يهدى من يريد هدايته ويوفّقه لسلوك الصّراط المستقيم بعد أن كان من ربّ العزّة والجلال هداية الدّلالة بإرسال خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين الّذي أوحى الله تعالى إليه هذا الكتاب العزيز.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

والصّابئين: جمع صابىء، مِنْ قولهم: صبأت النّجوم إذا طلعت. وصبأت ثنيّة الغلام إذا خرجت. فالصّابىء في اللّغة من خرج من دين إلى دين. ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم: قد صبأ. فالصّابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب(١).

هذه الآية الكريمة آية الفصل(٢) وهي تتحدّث عن الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً

(١) انظر تفسير القرطبي ٣٧٠ ومفردات الرّاغب الأصفهاني: «صبا» ٢٧٤

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيّم ١٢ مؤسّسة مكّة للطباعة والإعلام ١٣٩٦هـ

وبالإسلام ديناً وبالقرآن الكريم إماماً، وعن اليهود أتباع موسى عليه السّلام، وعن الصّابئين، وقد عرفنا أنّهم فرقةٌ من أهل الكتاب، وعن النّصارى أتباع عيسى عليه السّلام، وعن المجوس عبدة النّيران(١) في المقام الأوّل، وعن المشركين عبدة الأوثان. والآية الكريمة تقرّر أنّ الله تعالى يفصل يوم القيامة بين أتباع هذه الدّيانات السّتّة. إنّ الله تعالى شهيدٌ على كلّ شيءٍ ولا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: الأديان ستّةٌ واحدٌ للرّحمن وخمسةٌ للشّيطان(٢) وفَصْلُ الله تعالى بينهم إدخاله النّار الأحزاب كلّهم، والجنّة المؤمنين به وبرسله فذلك هو الفصل من الله بينهم(٣)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

ألم تر يامحمّد بقلبك ويّاأيّها الإنسان أنّ الله سبحانه وتعالى يسجد له من في السّماوات من الملائكة، ومن في الأرض من الإنس والجنّ وسائر الخلق، والشّمس مصدر الضّياء نهاراً، والقمر مصدر النّور ليلاً، والنّجوم الّتي تزيّن السّماء الدّنيا وتظهر ليلاً، والجبال، والشّجر، والدّوابّ، وكثيرٌ من النّاس وهم المؤمنون، وكثيرٌ وجب عليه العذاب وهم المشركون. ومن يهن الله تعالى في الدّنيا والآخرة

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبري ١٧/ ٩٧

(٢) هداية الحيارى في أجوابة اليهود والنّصارى ١٢ وتفسير الطبري ١٧/ ٩٧

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ٩٧

نما له من مكرم، ومن يذلّه فما له من معزّ. إنّ الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، له الخلق والأمر وحده لا شريك له، ولا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون.

وبشأن إعجاز الآية الكريمة في ترتيب حبّات عقدها يصحّ أن نقول في إيجاز: إنّ التّرتيب للحبّات لا يمكن أن يكون إلاّ في هذه الصّورة. ويصحّ أن نقول في تفسير ذلك إنّ التّرتيب بدأ بالسّماوات لأنّها الأسمى والأكبر، وكان مجيء الأرض بعد ذلك لأنّها تلى السّماوات في الضّخامة، وبسبب الطباق بين السّماء والأرض، فَتَضَادُّ المعاني من بواعث انجذابها وتداعيها. ولّما كان الحديث عن العناصر المشتركة بين السّماء والأرض كان الحديث عن الشّمس فالقمر فالنّجوم. إنّ الشّمس هي الأكبر، والمرتبطة بإيجابيّة النّهار ومصدرُ الضّياء والدّفء. وإنّ علاقتنا بالقمر تلى علاقتنا بالشّمس فهو في أعيننا يلي الشّمس ضخامةً، هذا إلى ارتباطه بسكون اللّيل وتحويله ليلاً ضياء الشّمس نورا. وإنّ علاقتنا بالنّجوم تلى علاقتنا بالقمر فهي في أعيننا تلى القمر حجماً ونوراً وبهاءً. وكما يظهر دور القمر في حال غياب الشّمس يظهر دور النّجوم في حال غياب القمر أو اضمحلاله.

ولّما تحوّل حديث الآية الكريمة إلى العناصر الأرضيّة كان هذا التّحوّل مراعياً التّحوّل من السّماء إلى الأرض اتّجاهاً وحجماً. إنّ الجبال أعلى من الشّجر، وإنّ الشّجر أعلى من الدّوابّ. وإنّ من الدّوابّ ما هو أكبر حجماً من الإنسان.

والعجيب بشأن هذه المخلوقات الّتي لا تعقل أنّها جميعها تسجد لله تعالى وتسبّح بحمده عزّ وجلْ بلغاتها الّتي لا نفهمها.

ثمّ كان التّحوّل إلى جنس الإنسان. ومن الطّبيعيّ أن يتقدّم المؤمن في الذّكر والمتّقى، على الكافر والعاصي.

والعجيب بشأن جنس الإنسان أنّ كثيراً من النّاس يفرد الله تعالى بالعبادة وليس كلّ النّاس، كما أنّ كثيراً من الناس حقّ عليه العذاب ووجب عليه العقاب بسبب كفره أو عصيانه.

وإذا كان المؤمن قد استحقّ الإكرام فإنّ الكافر قد استحقّ الإهانة. والله

سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، فيكرم المؤمن المتّقى الّذي يستحقّ الإكرام، ويهين الكافر العاصي الّذي يستحقّ الإهانة.

وهكذا يتجلّى مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في ترتيب حبّات عقد المعاني في طريقةٍ تملك النّفس وتخلب اللّبّ.

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟
فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ
وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟
أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

هذان خصمان اختصموا في ربّهم: الخصم مصدر خَصَمْتُه أي نازعته خصماً. ثمّ سمّي المخاصم خصماً. واستعمل للواحد والجمع. وقوله: ﴿خصمان اختصموا﴾ أي فريقان(١) وجاء في صحيح البخاري(٢) عن أبي ذرّ رضي الله عنه أنّه كان يُقْسِم فيها قَسَما: إنّ هذه الآية: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربّهم﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه وعُتْبةَ وصاحبيه يوم برزوا في يوم بدر. كما جاء في صحيح البخاري(٣) عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أنا أوّل من يجثو بين يدي الرّحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربّهم﴾ قال: هم الّذين بارزوا يوم بدر: عليٌّ وحمزة وعبيدة، وشيبة

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «خصم» ١٤٩

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٤٣ حديث رقم ٤٧٤٣

(٣) فتح الباري ٨/ ٤٤٣ حديث رقم ٤٧٤٤

ابن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

وثمّة مجموعةٌ من الآراء في هذين الخصمين تدور في مجموعها حول رأي رجّحه العلماء هو أنّ المراد بالخصمين المؤمنون من جانبٍ والكافرون من جانبٍ آخر، ويدخل في هذا الرّأي الرّأي الّذي يذهب إلى أنّ الخصمين هم الّذين بارزوا يوم بدر، فثّمة المؤمنون من جانب والكافرون من جانبٍ آخر. وإنّ الحجّة الّتي ارتكز عليها هذا الفريق من العلماء هي أنّ العبرة كما هو معروفٌ بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب(١) فتأويل الكلام: هذان خصمان اختصموا في دين ربّهم. واختصامهم في ذلك معاداة كلّ فريقٍ منهما الفريق الآخر ومحاربته إيّاه على دينه(٢).

ثيابٌ من نار: قميصٌ من نُحاسٍ من نارٍ(٣) وليس شيءٌ من الآنية أحمى وأشدّ حرّاً منه(٤).

الحميم: الماء المغلي(٥)

يصهر به ما في بطونهم والجلود: يذاب بالحميم الّذي يصبّ من فوق رءوسهم ما في بطونهم من الشّحوم. وتشوى جلودهم منه فتتساقط. والصّهر هو الإذابة. يقال منه: صهرت الأَلْيَة بالنّار إذا أذبتها أصهرها صهرا (٦).

ولهم مقامع من حديد: واحدة المقامع المِقْمَعة. والمِقْمَع والمِقْمعة، كلاهما: ما قُمِع به. والمِقمعة: واحدة المقامع من حديد كالمِحْجن يضرب على رأس الفيل. قال ابن الأثير: المقمعة واحدة المقامع وهي سِياطٌ تُعْمَلَ من حديدٍ رءوسها

(١) انظر -- مثلا - تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٠ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢١٢ وفتح الباري ٨/ ٤٤٤

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٠

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٠

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٠

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٠

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠١

معوجّة(١)

من غمٍّ : من كرب(٢)

وذوقوا عذاب الحريق: ويقال لهم ذوقوا عذاب النّار. وقيل: ﴿عذاب الحريق﴾ والمعنى المحرق، كما قيل العذاب الأليم بمعنى المؤلم(٣).

هذان فريقان اختصموا في دين الله تعالى، فريق المؤمنين الموحّدين المتّقين، وفريق الكافرين المشركين الصّادّين عن سبيل الله تعالى. الفريق الأوّل يبذل في سبيل الله تعالى النّفس والنّفيس، والفريق الآخر يبذل في سبيل الشّيطان والطّاغوت النّفس والنّفيس كذلك. وإنّ الله تعالى سيثيب الفريق الأول ويعاقب الفريق الآخر. والآية الكريمة تتحدّث عن بعض صور العذاب. إن الّذين كفروا قطّعت لهم ثيابٌ على هيئة أجسادهم من نارٍ، وربّما في هيئة النُّحاس المذاب باعتباره أشد المعادن حرارة. ولمّا كانت الثّياب لا تغطّي الرّءوس في العادة فإنّ أولئك الكافرين يُصَبّ من فوق رءوسهم الماء الشّديد الغليان. وبهذا النّوع من الماء يُصْهر ما في بطون الكافرين من شحوم وتُشْوَى الوجوه وكامل الجلود. ولهؤلاء الكافرين مقامع من حديد في هيئة العصيّ المعقوفة الرّءوس. وهذا النّوع من سياط الحديد ذوات الرّءوس المعقوفة يتمّ بها الضّرب فوق الرّأس في العادة، والجرّ من الرّقبة. إنّ أولئك الكافرين حينما يريدون أن يخرجوا من النّار من أجل الغمّ الّذي امتلأت به صدورهم أعيدوا فيها بتلك المقامع. وقيل لهم ذوقوا عذاب النّار المحرقة.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

(١) انظر لسان العرب: «قمع»

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠١

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠١

من أساور: الأساور جمع أَسْوِرة. وأسورة جمع سِوار. وهو سِوار المرأة وسُوارها. والسّوار من الحُليّ (١) يلبس في الأيدي(٢) من أساور: متعلّق بنعت لمفعولٍ محذوف بتضمين يحلّون معنى يلبسون أي يحلّون حُليّاً من أساور(٣)

ولؤلؤا: الواو عاطفة. لؤلؤا: معطوف على المفعول المحذوف (٤)

ولباسهم فيها حرير: الحرير من الثّياب مارقّ (٥)

في مقابل عذاب الحريق الّذي كان من نصيب الّذين كفروا ثمّة جنّات النّعيم من نصيب الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات. إنّ لهم جنّاتٍ تجري من تحت أشجارها وقصورها أنواع الأنهار. وهم يلبسون من الحليّ في الجنّة أساور من ذهبٍ في أيديهم ولؤلؤا، ومن الثّياب يرتدون الحرير. وهذه الأنواع من الحليّ والثّياب رمزٌ لما سواها من حليٍ وثياب وأنواع النّعيم. والمعروف أنّ هذه الأنواع من الحليّ والثّياب محرّمةٌ في الدّنيا على ذكور أمّة محمّد بن عبدالله ﷺ. أمّا في الجنّة فلا.

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

وهدوا إلى الطّيّب من القول: وهداهم ربّهم في الدّنيا إلى شهادة ألاّ إله إلاّ الله (٦)

وهدوا إلى صراط الحميد: وهداهم ربّهم في الدّنيا إلى طريق الرّبّ الحميد. وطريقه دينه دين الإسلام الذي شرعه لخلقه وأمرهم أن يسلكوه. والحميد فعيل

---

(١) لسان العرب: «سور»

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٣

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٩٥

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٩٦

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «حر» ١١٢

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٢

صرف من مفعولٍ إليه. ومعناه أنّه محمودٌ عند أوليائه من خلقه. ثمّ صرف من محمود إلى حميدٍ (١)

من المعروف أنّ ثمّة نوعين من الهدى بإرادة الله تعالى. هدى الدّلالة. وهذا النّوع من الإرشاد يستطيع أن يقوم به كلّ من وفّقه الله تعالى للدّعوة إلى سبيل ربّه عزّ وجلّ، ابتداءً بالنّبيّين والمرسلين. وهدى التّوفيق. وهذا النّوع من الهدى خاصٌ بالذّات العليّة، فهو عزّ وجلّ يهدى من يشاء ويضلّ من يشاء، لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون. وإنّ هذه الآية الكريمة ذات علاقةٍ بالنّوع الآخر من الهدى، هدى التّوفيق.

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزة والجلال هدى في الحياة الدّنيا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات إلى الطّيّب من القول، وهو شهادة ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، كما هداهم إلى صراط الله تعالى المحمود على كلّ حال. ونستطيع أن نفهم أنّ الهداية إلى صراط الحميد هي التّطبيق العمليّ للطّيّب من القول بالمعنى الّذي تبيّن.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

سواءً العاكف فيه والباد: معتدلٌ في الواجب عليه من تعظيم حرمة المسجد الحرام وقضاء نسكه به والنّزول فيه حيث شاء العاكف فيه وهو المقيم به، والباد وهو المنتاب إليه من غيره (٢) أهله وغير أهله (٣) أهل مكّة وغيرهم(٤)

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٢

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٢

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٢

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٣

ومن يرد فيه: ومن يهمّ فيه(١)

بإلحاد: معنى الإلحاد في اللُّغة الميل عن القصد(٢) ولَحَدَ في الدّين يَلْحَد وألحد: مال وعدل(٣)والمُلْحد العادل عن الحقّ المُدْخل فيه ما ليس فيه(٤) وألحد الرّجل أي ظلم في الحرم(٥) وألحد فلانٌ مال عن الحقّ. والإلحاد ضربان. إلحادٌ إلى الشّرك بالله. وإلحادٌ إلى الشّرك بالأسباب. فالأوّل ينافي الإيمان ويبطله. والثّاني يوهن عراه ولا يبطله. ومن هذا النّحو قوله: ﴿ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلمٍ نذقه من عذابٍ أليم﴾(٦)

بظلم: عن ابن مسعود وابن عبّاس: معنيٌّ بالظّلم في هذا الموضع كلّ معصيةٍ لله (٧)

إنّ الذين كفروا بالله تعالى وأشركوا معه جلّ وعلا في العبادة سواه، والّذين يصدّون النّاس عن دين الله تعالى، والمؤمنين عن المسجد الحرام، الّذي جعله الله تعالى للمؤمنين جميعاً ويستوى في الحقوق والواجبات بشأنه، أهلُه سكّان مكّة، وغيرُ أهله من الوافدين عليه، لهم عذابٌ أليم(٨)

ومن يهمّ في المسجد الحرام بميلٍ عن الحقّ بنيّة أن يظلم متعمّداً نذقه من عذابٍ أليمٍ كذلك.

وممّا يلاحظ على الآية الكريمة أنّها تجعل العذاب الأليم نصيباً لمن همّ بالميل عن الحقّ في مكّة المكرّمة بنيّة ارتكاب أيّ ظلمٍ ولو كان هيّناً، فكيف بالعذاب

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٤

(٢) لسان العرب: «لحد»

(٣) لسان العرب: «لحد»

(٤) لسان العرب: «لحد»

(٥) لسان العرب: «لحد»

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «لحد» ٤٤٨

(٧) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٥

(٨) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٩٧

الأليم في حقّ من يرتكبون الظّلم فعلاً، وكيف بالّذين يصدّون عن المسجد الحرام. والمعروف أنّ الظّلم يأخذ في الاتّجاه صعداً حتّى يكون الشّرك ذاته. وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم﴾

وممّا يلاحظ كذلك أنّ الآية الكريمة تعبّر عن ساكن مكّة بأجلّ تعبير فهو العاكف في المسجد الملازم فيه عبادة الله تعالى. وهذا هو المأمول من ساكن الحرم. في حين تعبّر الآية الكريمة عن غير ساكن الحرم بأبسط تعبير كي يشمل الأعراب وسكّان البوادي ابتداءً، مروراً بمن يزداد حظّهم باطّراد في الأخذ بأسباب الحضارة والسّكن في المدن أو القرى. إنّ المؤمنين جميعاً متساوون في الحقوق والواجبات تجاه المسجد الحرام وأوّلِ بيتٍ وضعه الله تعالى لعبادته بالأرض في مكّة المكرّمة. إنّ الّذي يقيم بالبادية يقال له باد. والبادية كلّ مكانٍ يبدو ويظهر ما يعِنّ فيه ويعرض[2]

---

(١) سورة لقمان ١٣

(٢) انظر هنا مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بدا» ٤٠

(٣)
(الأمر بالحجّ إلى بيت اللّه تعالى الحرام والنّهي عن الشّرك)
الآيات (٢٦ ـ ٣٧)

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾

وإذ بوّأنا: واذكر يامحمّد(١) إذ بيّنّا(٢) لإبراهيم ووطّأنا له(٣) مكان البيت وسوّيناه له(٤) وأرشدناه إليه وسلّمناه له وأذنّا له في بنائه(٥).

مكان البيت: مكان الكعبة(٦)

ألاّ تشرك بي شيئاً: وأمرناه ألاّ تشرك بي شيئا (٧)

وطهّر بيتي: وطهّر بيتي من الشّرك وعبادة الأوثان(٨)

للطّائفين: للطّائفين به (٩)

والقائمين: والمصلّين الّذين هم قيامٌ في صلاتهم(١٠)

والرّكّع السّجود: والرّكّع السّجود في صلاتهم حول البيت (١١)

واذكر يامحمّد لقومك الّذين تورّطوا في الشّرك، وهم سكّان الحرم، واذكر لمن شاكلهم من المشركين، إذ بيّنّا لإبراهيم أبى الأنبياء عليهم السّلام وعيّنّا له مكان البيت العتيق والكعبة المشرّفة في مكّة المكرّمة وأمرناه ألا تشرك بي شيئاً وأن تفردني

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٥ والجلالين

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٥

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني «بواء» ٦٩

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٥

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٦

(٧) الجلالين

(٨) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٦

(٩) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٦

(١٠) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٦

(١١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٦

وحدي بالعبادة، وقلنا له طهّر بيتي الحرام من الشّرك وعبادة الأوثان للطّائفين بالبيت العتيق، والقائمين للصلاة به والدّعاء والعبادة، وللرّكّع السّجود المصلّين في جماعة ومنفردين، صلاة الفرض وصلاة النّافلة.

وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

وأذّن في النّاس بالحجّ: وأعلم وناد في النّاس أن حجّوا أيّها النّاس بيت الله الحرام(١)

رجالاً: مشاةً على أرجلهم(٢) ورجال جمع راجل كما أنّ الرّكاب جمع راكب(٣) ويقال: رجلٌ راجل أي قويٌّ على المشي(٤) برجله. والرّاجل مشتقٌّ من الرِّجل العضو الّذي يمشى عليه الإنسان(٥)

وعلى كلّ ضامر: وركباناً على كلّ ضامر، وهي الإبل المهازيل(٦)

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٦

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٦ و١٠٧

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «رجل» ١٩٠

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «رجل» ١٩٠

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «رجل» ١٩٠

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٦

والضّامر: الخفيف اللّحم[1] أي بعيرٍ مهزول. وهو يطلق على الذّكر والأنثى[2]

يأتين: قيل يأتين فجمع لأنّه أريد بكلّ ضامر النّوق. ومعنى الكلّ الجمع فلذلك قيل: يأتين[3]

من كلّ فجّ: من كلّ مكان[4] وطريق[5] والفجّ: شقّةٌ يكتنفها جبلان. ويستعمل في الطّريق الواسع وجمعه فِجاج[6]

عميق: بعيد[7]

ليشهدوا منافع لهم: االعمل لّذي يرضى الله والتّجارة [8] وعن ابن عبّاس: منافع الدّنيا والآخرة [9]

في أيّام معلومات: عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: الأيّام المعلومات أيّام العشر [10]

على ما رزقهم من بهيمة الأنعام: وكي يذكروا اسم الله على ما رزقهم من الهدايا والبدن الّتي أهدوها من الإبل والبقر والغنم [11]

فكلوا منها: هذا الأمر من الله جلّ ثناؤه أمر إباحة لا أمر إيجاب[12]

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ضمر» ٢٩٩

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٦

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٧

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٦ والجلالين

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «فجج» ٣٧٣

(٧) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٧ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢١٦ والجلالين

(٨) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٨

(٩) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٦

(١٠) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٦

(١١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٨ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢١٧

(١٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٩

البائس: الّذي به ضرّ الجوع والزّمانة والحاجة (١)
والفقير: الّذي لا شيء له (٢)

ثمّ ليقضوا تفثهم: أي يزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الّظفر(٣) عن ابن عبّاس: يعنى بالتّفث وضع إحرامهم من حلق الرّأس ولبس الثّياب وقصّ الأظفار ونحو ذلك (٤)

وليوفوا نذورهم: وليوفوا الله بما نذروا من هديٍ وبدنة وغير ذلك (٥)

وليطّوّفوا بالبيت العتيق: عنى بالطّواف الّذي أمر جلّ ثناؤه حاجّ البيت العتيق به في هذه الآية طواف الإفاضة الّذي يطاف به بعد التّعريف(٦) إمّا يوم النّحر وإمّا بعده. لا خلاف بين أهل التّأويل في ذلك(٧) ويسمىّ طواف الزّيارة(٨) أي زيارة البيت(٩) والطّواف الواجب(١٠) وطواف الرّكن(١١) والعتيق: القديم(١٢) أو الّذي أعتقه الله تعالى من الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه وهدمه(١٣)

يأمر الحقّ جلّ وعلا إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء بأن يؤذّن في النّاس بالحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام ويعلن فيهم ويعلمهم بأنّ الله تعالى فرض على

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٩
(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠٩
(٣) الجلالين
(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٠
(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٠
(٦) التّعريف بمعنى الوقوف بعرفة
(٧) تفسير الطّبري ١٧/ ١١١
(٨) تفسير الطّبري ١٧/ ١١١
(٩) تفسير الطّبري ١٧/ ١١١
(١٠) تفسير الطّبري ١٧/ ١١١
(١١) فقه السّنّة ١/ ٦٣١ و٦٣٩
(١٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١١١
(١٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٠

النّاس أن يقصدوا المسجد الحرام ويحجّوا البيت العتيق ويؤدّوا مناسك الحجّ لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً، كما بيّن القرآن الكريم في غير هذا الموضع(١) ويبيّن الحقّ جلّ وعلا لإبراهيم عليه السّلام أنّه إذا أذّن عليه السّلام بالحجّ فإنّ النّاس سوف يأتون مستجيبين ملبّين ماشين رجالاً على أقدامهم أو راكبين على كلّ بعيرٍ أضناه السّفر وأهزله بعد الشّقّة. إنّ قوافل النّياق سوف يأتين لهذا الرّكن العظيم من كلّ مكانٍ ناءٍ وطريقٍ بعيد. ويمتثل إبراهيم عليه السّلام فيؤذّن في النّاس بالحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام، ويبلّغ الحقّ جلّ وعلا أذان إبراهيم عليه السّلام لجميع النّاس كما وعد جلّ وعلا ووعده الحقّ. ولايزال هذا الأذان يبلغ كلّ أذن في أرجاء المعمورة عن طريق هذا الكتاب العزيز وسنّة المصطفى ﷺ ودين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ والّذي يشكّل الحجّ إلى بيت الله تعالى الرّكن الخامس لهذا الدين الحنيف. والمعروف أنّ الحنيفية السّمحة الّتي بعث الله تعالى بها محمّداً ﷺ هي الحنيفيّة الكاملة والأخيرة لحنيفيّة إبراهيم عليه السّلام.

والمعروف كذلك أنّ الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام وهو الرّكن الخامس من أركان الإسلام ممّا ورثه محمّد بن عبدالله ﷺ عن طريق الوحي من حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام.

وممّا يلفت النّظر بشأن القول: ﴿يأتوك رجالاً﴾ مجيء جملة: «يأتى» الّتي لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد المكانيّ أو الزّمانيّ أو المعنويّ. وهي هنا تفيد البعد المكانيّ في المقام الأوّل. وحينما يأتي النّاس من أبعد الأماكن بقصد الحجّ يدخل فيهم من باب الأحرى الّذين يقلّون عنهم بعداً. وهذه الحقيقة تزداد رسوخاً بتوالي القرون وسهولة المواصلات. فكما بلغ هذا الدّين حيث بلغ اللّيل والنّهار كما قال الصّادق المصدوق ﷺ أتى الحجّاج والمعتمرون من كلّ مكان وقصدوا البيت الحرام لأداء الحجّ والعمرة كما بيّن الحقّ جلّ وعلا وأمر.

ويقرّر السّياق بعض الحكم من الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام وذلك بأن يشهد النّاس في أثناء أداء هذا الرّكن منافع كثيرةً لهم دينيّةً كأداء المناسك ودنيويّة

(١) سورة آل عمران ٩٧

كالتّجارة والتّعارف، وبأن يذكروا اسم الله تعالى بالتّلبية والتّهليل والتّكبير والتّحميد وما إلى ذلك في الأيّام العشرة المعلومات من ذي الحجّة وأيّام التّشريق، وبأن يشكروا له عزّ وجلّ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم الّتي تنحر في يوم العيد وما بعده من الهدايا والضّحايا[1] إنّ على النّاس أن يأكلوا من تلك الأنعام إذا شاءوا، وأن يطعموا منها ذلك الّذي ناله بؤس الفاقة وأذاها، ومسّه ضرّ الفقر وأسكنه.

وبعد رمي جمرة العقبة يوم النّحر على الحاجّ أن يقضي تفثه، ويزيل وسخه، وينهي شعثه، بحلق الشّعر أو تقصيره، وقصّ أظافره، ولُبْسُ ثيابه وما إلى ذلك. كما أنّ على الحاج أن يفي بنذره لله تعالى من هَدْيٍ وأُضْحيّة وما إلى ذلك. وعلى الحاجّ أن يطوف بالبيت العتيق، أوّل بيتٍ وضعه الله تعالى لعبادته عزّ وجلّ في الأرض وأقدم مكانٍ للعبادة، ذلك المكان العتيق الّذي أعتقه الله تعالى من الجبابرة أن يصلوا إليه بأذى.

والمراد بالقول: ﴿وليطّوّفوا بالبيت العتيق﴾ طواف الإفاضة، بعد الإفاضة من عرفات، وطواف الرّكن، لأنّ طواف الإفاضة أحد أركان الحجّ، وقد سمّي طواف الرّكن من أجل ذلك، وطواف الزّيارة، أي زيارة البيت العتيق والمسجد الحرام.

ذَٰلِكَ وَمَن
يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ
لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟
ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾
حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

(١) الجلالين

ذلك: هذا الّذي أمر به من قضاء التّفث والوفاء بالنّذر والطّواف بالبيت العتيق هو الفرض الواجب عليكم ياأيّها النّاس في حجّكم(١) ويصحّ أن يكون خبر مبتدأ مقدّر أي الأمر أو الشّأن ذلك المذكور(٢)

ومن يعظّم حرمات الله فهو خيرٌ له عند ربّه: ومن يجتنب ما أمره الله باجتنابه في حال إحرامه تعظيماً منه لحدود الله أن يواقعها وحرمه أن يستحلّها فهو خير له عند ربّه في الآخرة (٣)

وأحلّت لكم الأنعام: وأحلّ الله لكم أيّها النّاس الأنعام أن تأكلوها إذا ذكّيتموها .فلم يحرّم عليكم منها بحيرةً ولا سائبةً ولا وصيلةً ولا حاما ولا ما جعلتموه منها لآلهتكم(٤)

إلاّ ما يتلى عليكم: في كتاب الله، وذلك الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة وما أكل السّبع وما ذبح على النّصب (٥)

فاجتنبوا الرّجس: الشّيء القَذر (٦)

من الأوثان واجتنبوا قول الزّور: مِنْ هنا لبيان الجنس، أي اجتنبوا الرّجس الّذي هو الأوثان. وقرن الشّرك بالله بقول الزّور كقوله(٧): ﴿قل إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ ومنه شهادة الزّور(٨)

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١١١

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١١١

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٢

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٢

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «رجس» ١٨٨

(٧) سورة الاعراف ٣٣

(٨) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٨

حنفاء لله غير مشركين به: أي مخلصين له الدّين منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحقّ (١)

خرّ من السّماء: سقط منها(٢)

فتخطفه الطّير: أي تقطّعه الطّيور في الهواء(٣)

في مكانٍ سحيق: في مكانٍ بعيد. من قولهم: أبعده الله وأسحقه(٤)

الشّأن ذلك الّذي بيّناه لكم من متعلّقات الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام ومنها قضاء التّفث والوفاء بالنّذر والطّواف بالبيت العتيق فامتثلوا أوامرى واجتنبوا نواهيّ. ومن يعظّم حرمات الله تعالى ويجتنب ما حرّمه الله تعالى عليه في الحجّ فإنّ ذلك التّعظيم واجتناب الحرمات خيرٌ له عند ربّه جلّ وعلا في الأولى والآخرة، لأنّ الثّمرة اليانعة لتقوى الله تعالى يشمل خيرها الحياة الأولى كما يشمل الآخرة، إنّ الحسنة تهدى إلى الحسنة، وإنّ الثّواب في الآخرة وفق عمل الصّالحات الّتي يراد بها وجه الله تعالى في الأولى. وقد أحلّ الله سبحانه وتعالى لنا بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم إذا ذكرنا اسم الله تعالى عليها عند الذّبح إلاّ ما حرّم الله تعالى علينا فيما يُتْلَى علينا من آي الكتاب العزيز في مثل قول الحقّ جلّ وعلا(٥): ﴿حُرِّمَتْ عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة وما أكل السَّبُع إلاّ ما ذكّيتم وما ذُبِحَ على النُّصُب﴾

ومن مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز التّحذير من الشّرك بأساليب متنوّعة في أثناء الحديث عن الحجّ وأداء المناسك. وقد تبيّن من تجارب الأمم الّتي جعل الله تعالى لكلٍ منها مكاناً يقصدونه لعبادة الله تعالى وحده لاشريك له والذّبح فيه، تبيّن أنّ الدّاء الخطير الّذي له القدرة على التّسلّل والاستفحال هو الإشراك

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٩

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٩

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٩

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٣

(٥) سورة المائدة ٣

بالله تعالى. وكأنّ العقل الجمعيّ هو الّذي تكون له السّيطرة في حال غياب العقل الفرديّ المستنير بتعاليم السّماء أو غفلته. ومن أقرب الأدلّة أنّك تنظر إلى الاحتفالات الدّينيّة لبعض أتباع الدّيانات السّماويّة في أيّامنا هذه فتتبيّن أنّ طلائع المحتفين في تلك المناسبة إذا كانوا يمثّلون الغاية من الانضباط باعتبارهم القادة فإنّك سُرْعان ما تتبيّن تخفّف الصّفوف التّالية تباعاً من الضّوابط حتّى تكون أواخر الصّفوف ضداً لأوائلها في مجال التّطبيق للتّعاليم الدّينيّة.

وبما أنّ أخطر صور الانحراف الشّرك فإنّ القرآن الكريم في أثناء حديثه عن الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام يحذّر من الشّرك في مواضع متعدّدة وبأساليب متنوّعة.

إنّ السّياق يأمر الّذين يحجّون إلى بيت الله تعالى الحرام بأن يجتنبوا الرّجس من الأوثان والقَذَر من الأصنام بأن يفردوا الله تعالى بالعبادة، وبأن يجتنبوا قول الزّور ويتحاشوا شهادة الزّور. وإنّ أخطر صور الإدلاء بشهادة الزّور الشّرك، بأن يشرك الإنسان مع الله تعالى غيره بالعبادة. وإنّ من أخطر صور الإدلاء بشهادة الزّور في حقّ العباد ما نصّ عليه الحديث النّبويّ الشّريف في الصّحيحين عن أبى بكرة أنّ رسول الله ﷺ قال: ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يارسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين. وكان متّكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزّور ألا وشهادة الزّور. فمازال يكرّرها حتّى قلنا ليته سكت (١)

وبعد الأمر باجتناب الرّجس من الأوثان واجتناب قول الزّور يأتى الإرشاد لإخلاص العبادة لله تعالى وحده لاشريك له بالميل عن كلّ ما يعبد من دون الله تعالى والاتّجاه قصداً إلى التّوحيد والابتعاد عن الإشراك بالله تعالى غيره.

إنّ من يشرك بالله تعالى بمثابة من انفصمت به العروة الممسك بطرف حبلها فخرّ من السّماء وهوى في الفضاء. وإنّ مصير الّذي يسقط من السّماء الموت الأكيد في إحدى حالتين. إنّه في أثناء السّقوط من السّماء إمّا أن تعترضه جوارح

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٩

الطّير فتتخطّفه كيفما اتّفق وتمزّقه كلّ ممزّق وبذلك يغدو جسده بعد الموت أثراً بعدعين. وإمّا ألاّ تعترضه الطّير فيسلم جسده بعد الموت وفي هذه الحال تتمكّن منه الرّيح القويّة الملتئمة الأجزاء فتهوى به جثّةً هامدةً في مكانٍ بعيد لا يكاد يعلمه إلاّ الله تعالى.

ويصحّ أن يكون تمزيق الطّير جثّة الفريق الأوّل من المشركين كلّ ممزّقٍ دليلاً على تمزيق الأهواء أنفس ذلك الفريق من المشركين الّذين تفرّقت به الطّرق والسّبل عن طريق الحقّ وسبيل الله تعالى. وها هي ذي جوارح الطّير في هيئة الأسراب تمزّق الأجساد في الصّورة الّتي مزّقتها فيها الأهواء والشّهوات.

ويصحّ أن يكون قذف الرّيح الواحدة الملتئمة الأجزاء جثّة الواحد من الفريق الآخر من المشركين دليلاً على تمادي الواحد من ذلك الفريق من المشركين في الضّلال وسيره في مضمار الشّرك إلى آخر الشّوط. وها هي ذى الرّيح الملتئمة الأجزاء الشّديدة الهبوب تقذف ذلك الإمام في الضّلالة في مكانٍ سحيقٍ، وذلك على غرار بلوغه في الضلالة بعدها السّحيق وغايتها القصوى. والله أعلم.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

ومن يعظّم شعائر الله: إنّ الله تعالى ذكره أخبر أنّ تعظيم شعائره، وهي ما جعله أعلاماً لخلقه فيما تعبّدهم به من مناسك حجّهم من الأماكن الّتي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها والأعمال الّتي ألزمهم عملها في حجّهم من تقوى قلوبهم لم يخصّص من ذلك شيئا (١) ويدخل في الشّعائر الهدايا والبدن.

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٤

عن ابن عباس: تعظيمها استسمانها واستحسانها (١) واستعظامها (٢)

لكم فيها منافع إلى أجلٍ مسمّى: كركوبها والحمل عليها ما لا يضرّها إلى وقت نحرها (٣) كما ثبت في الصحيحين عن أنس أنّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنةً قال: اركبها. قال: إنّها بدنة. قال: اركبها ويحك، في الثّانية أو الثّالثة. وفي روايةٍ لمسلمٍ عن جابر عن رسول الله ﷺ أنّه قال: اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها (٤)

ثمّ محلّها: أي مكان حلّ نحرها (٥) ومنحر البدن والهدايا الّتي أوجبتموها(٦)

إلى البيت العتيق: عنى بالبيت العتيق: أرض الحرم كلّها. وذلك نظير قوله(٧): ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ والمراد الحرم كلّه (٨)

الشّأن ذلك الّذي بيّنته لكم من أمور الحجّ وأمرتكم به من التّوحيد ونهيتكم عنه من الشّرك. ومن يعظّم شعائر الله تعالى وما تعبّدكم به من مناسك الحجّ ومنها الذّبائح الّتي تذبح وتنحر في هيئة الهدي والأضاحي فإنّ فعل ذلك دليلٌ على تمكّن التّقوى من القلوب واستقرارها فيها. إنّ لكم في الهدايا والبدن منافع من شرب لبنٍ وركوبٍ وحملٍ عليها ما لا يضرّها وغير ذلك، إلى أجلٍ مسمّى هو وقت نحرها. وإنّ مكان حلّ نحرها البيت العتيق وأرض الحرم كلّها.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٩

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٩ وتفسير الطّبري ١٧/ ١١٣

(٣) انظر الجلالين

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٠

(٥) الجلالين

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٦

(٧) سورة التّوبة ٢٨

(٨) انظر تفسير الطّبري ١٧/ ١١٦

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

ولكلّ أمّة: ولكلّ جماعة سلف فيكم من أهل الإيمان بالله أيّها النّاس(١)

جعلنا منسكاً: المَنْسَك والمَنْسِك: الموضع الّذي تذبح فيه النُّسُك. وقرىء بهما قوله تعالى: ﴿جعلنا منسكاً هم ناسكوه﴾(٢) والنُّسُك والنّسيكة: الذّبيحة. وقيل: النُّسُك الدّم، والنّسيكة الذّبيحة. تقول: من فعل كذا وكذا فعليه نُسُك أي دمٌ يُهَريقُه بمكّة، شرّفها الله تعالى. واسم تلك الذّبيحة النّسيكة، والجمع نُسُك ونسائك(٣) وقد نَسَك يَنْسُك نَسْكاً إذا ذبح(٤) والنُّسْك والنُّسُك: العبادة والطّاعة وكلّ ما تُقُرِّب به إلى الله تعالى(٥) ورجلٌ ناسك: عابد. وقد نَسَك وتنسَّك أي تعبّد(٦) وسئل ثعلب عن النّاسك ما هو فقال: هو مأخوذٌ من النَّسيكة، وهو سبيكة الفضّة المصفّاة. كأنّه خلّص نفسه وصفّاها لله عزّ وجلّ (٧)

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/١١٦

(٢) لسان العرب: «نسك»

(٣) لسان العرب: «نسك»

(٤) لسان العرب: «نسك»

(٥) لسان العرب: «نسك»

(٦) لسان العرب: «نسك»

(٧) لسان العرب: «نسك»

من بهيمة الأنعام: من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير. وقيل إنّما قيل للبهائم بهائم لأنّها لا تتكلّم(١)

وبشّر المخبتين: وبشّر الخاشعين المتواضعين المطمئنّين(٢) وأخبت لله: خشع. وأخبت: تواضع. وكلاهما من الخَبْت(٣) والخَبْت: ما اطمأنّ من الأرض واتّسع(٤) يقول تعالى ذكره: وبشّر يامحمّد الخاضعين لله بالطّاعة المذعنين له بالعبوديّة المنيبين إليه بالتّوبة (٥)

الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم: الّذين تخشع قلوبهم لذكر الله وتخضع من خشيته وجلاً من عقابه وخوفاً من سخطه (٦)

يبيّن ربّ العزّة والجلال أنّه جعل لكلّ أمّةٍ من الأمم السّابقة الّتي أرسل إليها نبيّاً أو رسولاً مكان عبادة تقصده لإفراد الله تعالى بالعبادة، وتحجّ إليه، وتنحر فيه، وتذبح الأنعام من إبلٍ وبقرٍ وغنم، وتذكر عند النّحر والذّبح اسم الله تعالى وتشكر له نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة، على ما رزقها من بهيمة الأنعام وسخّرها من أجلها.

ويعمّق السّياق معنى التّوحيد، فكلّ الأمم مأمورةٌ بأن توحّد الله تعالى، وتفرده عزّ وجلّ بالعبادة، وأن تسلم له جلّ وعلا بإبداء غاية الخضوع والتّذلّل لله تعالى، ومنتهى الطّاعة والاستسلام لمشيئته عزّ وجلّ. إنّ هذه المعاني السّامية الّتي تؤكّد التّوحيد هي الّتي بعث الله تعالى بها جميع النبيّين والمرسلين وإن تعدّدت الشّرائع واختلفت المناهج.

ويبشّر السّياق بالخير العميم والأجر الجزيل المخبتين الخاشعين المتواضعين

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٦

(٢) انظر لسان العرب: «خبت»

(٣) لسان العرب: «خبت»

(٤) لسان العرب: «خبت»

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٦

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٧

المطمئنّين الطّائعين. إنّهم هم الّذين إذا ذُكِرَ الله تعالى خشعت قلوبهم خوفاً من عذاب الله تعالى، والصّابرون على ما أصابهم في البأساء وشدّة الفقر، والضرّاء وشدّة المرض، وحين البأس وشدّة القتال، وهم الّذين ينفقون ممّا رزقهم الله تعالى من المال الحلال على من يعولونهم ومن يستحقّون الإنفاق والتّصدّق عليهم.

وبشأن القول: ﴿منسكا﴾ سبق لنا في أثناء دراستنا المتأمّلة للآية الكريمة الثّامنة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة أن وقفنا ملياً عند القول على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام: ﴿وأرنا مناسكنا﴾ وممّا عُنِينا به تطوّر دلالة الأصل اللّغوي: «نسك» والاستعمالات المختلفة في القرآن الكريم للألفاظ المشتقّة من هذا الأصل اللّغويّ (١) وقد تبيّن اتّجاه التّطوّر الدّلاليّ من المحسوس إلى المعنويّ. إنّ المنسك ذو علاقة بالنّسيكة بمعنى الذّبيحة الّتي تذبح لله تعالى في مكان العبادة الّذي جعله الله تعالى مقصداً للحجّ وأداء المشاعر، ومنها الذّبح لله تعالى. وقد تطوّرت دلالة المنسك والمناسك كي تفيد جميع أعمال الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام، والمكان الّذي جعله الله تعالى مكان نحر الهدي وذبحه. وقد تطورت الدّلالة بعد ذلك كي تفيد مطلق العبادة، ومن هنا أفادت لفظة النّاسك معنى المنقطع للعبادة حتّى غدا كسبيكة الفضّة صفاءً ونقاء.

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ
ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ
جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا
وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟
ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

(١) تأملات في سورة البقرة ٧٤١ ـ ٧٤٥

والبدن: البُدْن جمع البَدَنة. وإنّما سمّيت بدنة لأنّها تَبْدُن أي تَسْمَن. والبدنة من الإبل والبقر: كالأُضْحيَة من الغَنَم تُهْدَى إلى مكّة، الذّكر والأنثى في ذلك سواء. الجوهريّ: البَدْنة ناقةٌ أو بقرةٌ تُنْحَرُ بمكّة، سمّيت بذلك لأنّهم كانوا يسمّنونها. والجمع بُدُن وبُدْن (١)

من شعائر الله: الشّعائر جمع شعيرة (٢) والشّعيرةكالشِّعار(٣)والشِّعار: العلامة(٤) وشعائر الحجّ مناسكه، واحدتها شعيرة(٥) والشّعيرة: البدنة المهداة، سمّيت بذلك لأنّه يؤثَّر فيها بالعلامات، والجمع شعائر. وشِعار الحجّ: مناسكه وعلاماته وآثاره وأعماله، جمع شعيرة. وكلّ ما جعل عَلَماً لطاعة الله عزّ وجلّ كالوقوف والطّواف والسّعي والرّمي والذّبح وغير ذلك. ومنه الحديث أنّ جبريل أتى النّبيّ ﷺ فقال: مر أمّتك أن يرفعوا أصواتهم بالتّلبية فإنّها من شعائر الحجّ(٦)﴿من شعائر الله﴾ من أعلام دينه(٧) ومن أعلام أمر الله الّذي أمركم به في مناسك حجّكم. إذا قلّدتموها وجلّلتموها وأشعرتموها عُلِم بذلك وشُعِر أنّكم فعلتم ذلك من الإبل والبقر(٨)

فاذكروا اسم الله عليها: سئل ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما عن معنى

---

(١) انظر لسان العرب: «بدن»

(٢) لسان العرب: «شعر» ومفردات الرّاغب الأصفهاني: «شعر» ٢٦٢

(٣) لسان العرب: «شعر» (٤) لسان العرب: «شعر»

(٥) لسان العرب: «شعر» (٦) لسان العرب: «شعر»

(٧) الجلالين

(٨) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٧ قلّدتموها: وضعتم القلادة والجمع قلائد في عنق الدّابّة الّتي تُهْدَى. انظر لسان العرب: «قلد» وجلّلتموها: ألبستموها الجلّ «بضمّ الجيم وفتحها» لتصان به والجمع جلال «بكسر الجيم» وأجلال. انظر لسان العرب: «جلل» وأشعرتموها: يقول الرّاغب الأصفهاني في المفردات: «شعر» ٢٦٢ في معنى قول الحقّ: ﴿لا تحلّوا شعائر الله﴾ المائدة ٢: «أي ما يُهْدَى إلى بيت الله. وسمّي بذلك لأنّها تُشْعَر أي تُعلَّم بأن تُدْمَى بشَعيرة أي حديدة يُشْعَر بها»

هذا القول الكريم فقال: «إذا أردت أن تنحر البدنة فانحرها وقل: الله أكبر. لا إله إلاّ الله. اللّهمّ منك ولك. ثمّ سَمِّ ثمّ انحرها. قلت: فأقول ذلك للأُضْحِيَة قال: وللأضحية»(١)

صوافّ: صوافّ: حال منصوبة من الهاء في «عليها» (٢) جمع صافّة، اسم فاعل من صفّ الثّلاثيّ (٣) أي قد صَفَّتْ قوائمها(٤) عن ابن عبّاس: قياماً على ثلاث أرجل(٥) معقولةً إحدى يديها(٦) وعن بجير بن سالم قال: رأيت ابن عمر وهو ينحر بدنته. قال، فقال: ﴿صوافّ﴾ كما قال الله. قال: فنحرها وهي قائمة معقولة إحدى يديها(٧) مستقبلةً البيت تصفّ أيديها بالقيود(٨) والبدنة إذا نُحِرَت عُقِلَتْ يدٌ واحدة فكانت على ثلاث، وكذلك تُنْحرَ (٩) الجوهريّ: صَفّت الإبل قوائمها فهي صافّةٌ وصوافّ (١٠) والصّفّ: السّطر المستوى من كلّ شيء (١١)

فإذا وجبت جنوبها: فإذا سقطت فوقعت جنوبها إلى الأرض بعد النّحر(١٢) ووجب الرّجل وُجوباً مات. وأصل الوجوب السّقوط والوقوع. ووجب الميّت إذا سقط ومات. ويقال للقتيل واجب. قال قيس بن الخطيم الشّاعر الأوسيّ الجاهليّ:

---

(١) تفسير الطّبري ١١٨/١٧

(٢) الجد، ل في اعراب القرآن وصرفه ١٠٦/٩ ولسان العرب: (صفف)

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠٧/٩

(٤) لسان العرب: «صفف»

(٥) تفسير الطّبري ١١٨/١٧

(٦) تفسير الطّبري ١١٨/١٧ وفي تفسير ابن كثير ٢٢٢/٣: «معقولة يدها اليسرى»

(٧) تفسير الطّبري ١١٨/١٧

(٨) تفسير الطبري ١١٨/١٧

(٩) تفسير الطبري ١١٩/١٧

(١٠) لسان العرب: «صفف»

(١١) لسان العرب: «صفف»

(١٢) تفسير الطبري ١١٩/١٧

أطاعت بنو عوفٍ أميراً نهاهم . . عن السِّلم حتّى كان أوّل واجب

وَوَجبَ الحائطُ يَجب وَجْباً ووجبة: سقط. وفي المَثَل: بجنبه فلتكن الوجبة(١)

فكلوا منها: إن شئتم (٢) وليس بأمر إيجاب (٣) فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل (٤)

وأطعموا القانع: القانع الّذي يقنع بما أُعْطِي أو بما عنده ولا يسأل(٥) والقانع بمعنى الرّاضي. وفي الحديث: فأكل وأطعم القانع والمعترّ، هو من القُنوع الرّضا باليسير من العطاء. وقد قَنِع بالكسر يَقْنَع قُنوعاً وقَناعة: إذا رضي. وفي الحديث: القناعة كنزٌ لا يَنْفَد. وفي الحديث: عزّ من قَنِع وذلَّ من طمِع(٦)

والمعترّ: المعترّ الّذي يتعرّض لك أن تطعمه من اللّحم ولا يسأل (٧)

مع أنّ لفظة البدن تعنى الإبل والبقر معاً فإنّ المراد بالبدن هنا النّياق والإبل لأنّ السّياق بيّن الكيفيّة الّتي يتمّ بها النّحر وهي المتعلّقة بنحر الإبل واقفةً على ثلاث قوائم مقيّدةً إحدى اليدين بحيث ينجم عن عمليّة النّحر عمليّة السّقوط على الجنب.

إنّ السّياق يقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال جعل النّياق والإبل الّتي تُهْدَى إلى البيت العتيق وتُنْحر في الحرم من شعائر دين الله تعالى وعلامات الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام. إنّ لنا نحن المسلمين فيما نهدى إلى البيت العتيق من الأنعام، وبخاصّةٍ الإبل، خيراً كثيراً في الأولى والآخرة. وإنّما اقترن الخير الأكبر بالإبل

---

(١) انظر لسان العرب: «وجب»

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٩

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١١٩

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٠

(٦) انظر لسان العرب: «قنع»

(٧) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٠

السّمان بأكثر من البقر والغنم، وفي كلٍ خير، بسبب كثرة اللّحم والنّفع في حقّ الإبل على جهة الخصوص. والمعروف أنّ النّياق يتقدّم نفعها جميع الأنعام بما في ذلك الإبل للانتفاع من لبن النّياق في المقام الأوّل. وكما زاد النّفع في الدّنيا من جهة النّياق والإبل زاد الأجر في الآخرة بإذن الله تعالى وفضله على نحو ما بيّن السّياق.

ويرشد السّياق الى الكيفيّة الّتي تُنْحر بها الإبل. إنّها تُوقَفُ مستقبلةً القبلة على ثلاث قوائم معقولةً يدها اليسرى (١) ويُذْكَرُ اسم الله تعالى عليها عند نحرها كما قال ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: الله أكبر. لا إله إلاّ الله. اللّهمّ منك ولك. ثمّ سمّ ثمّ انحرها.

فإذا سقطت الإبل بعد النّحر على جنوبها وماتت فكلوا منها إن شئتم وأطعموا القانع الّذي يقنع بما تعطونه منها ويرضى، ويقنع بما عنده ويرضى، ولا يسأل النّاس شيئاً، وأطعموا المعترّ الّذي يتعرّض للسّؤال ويخبرك بلسان حاله لا بمقاله أنّه محتاجٌ ويستحقّ أن يُعْطى من الحيوان المذبوح.

وحينما يكون القانع والمعترّ مستحقّيْنِ للعطاء وهما لا يسألان أصلاً فإنّ الّذي يسأل يدخل في المستحقّين بطبيعة الحال.

وهكذا سخّر الله تعالى لنا بهيمة الأنعام لعلّنا نشكر لله تعالى نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة علينا.

ويقرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى لن يناله جلّ وعلا شيءٌ من لحوم تلك الأنعام الّتي تُهْدَى إلى البيت العتيق ولا دماؤها ولكن يناله جلّ وعلا التّقوى منكم أيّها النّاس، فإنّ من يعظّم شعائر الله تعالى في الحجّ وفي غير الحجّ فإنّ كلّ ذلك من تقوى القلوب ودليلٌ على تمكّن خشية الله تعالى من نفوس أصحاب تلك القلوب.

وهكذا سخّر الله تعالى لنا تلك الأنعام لنكبّر الله تعالى على ما هدانا إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٢

معالم دينه بقول: الله أكبر الله أكبر. ومعروفٌ أنّ التّكبير يكون عند النّحر والذّبح وفي منى وعند الأذان والإقامة وما إلى ذلك. إنّ الله تعالى سبحانه وتعالى أكبر من كلّ كبير.

ويأمر السّياق المصطفى ﷺ بأن يبشّر المحسنين بثواب الدّنيا المتمثّل في الحياة الطّيّبة، وبحسن ثواب الآخرة في الجنّة الّتي عرضها السّماوات والأرض، والّتي أعدّها الله تعالى للمتّقين، والّتي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(٤)
(الإذن بالقتال ، والتّسلية للنّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين ، وإنذار الكافرين، وتبشير المؤمنين)
الآيات (٣٨ ـ ٥١)

إِنَّ ٱللَّهَ
يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال يدافع عن الّذين آمنوا شرّ الأشرار وكيد الفجّار، كما تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى لا يحبّ كلّ خائنٍ للعهود ناقضٍ للمواثيق ابتداءً بعهد الله تعالى الّذي أخذه على عباده وميثاقه الّذي واثقهم به بأن يعبدوه عزّ وجلّ وحده لا شريك له، كما لا يحبّ عزّ وجلّ كلّ كافر بالله تعالى مشركٍ به عزّ وجلّ سواه، كفورٍ لنعم الله تعالى العظيمة عليه وآلائه الجسيمة.

وإنّ دفاع الله تعالى عن عباده المؤمنين معناه نصر الله تعالى لهم بجنوده عزّ وجلّ الّتي لا يعلمها إلاّ هو. وإنّ مجيء «خوّان» و«كفور» في صيغتي المبالغة فعّال وفعول معناه التّمادي في الخيانة والكفر والكفران وعدم الإفادة من إمهال الله تعالى للخائن والكافر والتّمادي في الخيانة والكفر، حتّى أَخَذَه الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن
يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ
صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

أذن للّذين يقاتلون: أي المؤمنين أن يقاتلوا(١)

بأنّهم ظلموا: بسبب أنّهم ظلموا(٢) عن ابن عبّاس: نزلت في محمّد وأصحابه حين أُخرجوا من مكة الى المدينة(٣).

وجمهور العلماء على أنّ هذه أوّل آية نزلت في الجهاد. واستدلّ بهذه الآية بعضهم على أنّ السّورة مدنيّة(٤) عن ابن عبّاس قال: لمّا خرج النبي ﷺ من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيّهم. إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ليهلكنّ. قال ابن عبّاس:

---

(١) الجلالين

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ١٢٢ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٥

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٥ وتفسير الطبري ١٧/ ١٢٣ وأسباب النّزول للنّيسابوري ٣٥٧

فأنزل الله ﴿أذن للّذين يقاتلون بأنّهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير﴾. قال أبوبكر: فعرفت أنّه سيكون قتال. وهي أوّل آية نزلت[1] في القتال كما جاء في رواية الإمام أحمد[2] وروى الحديث الترمذيّ والنّسائيّ في التفسير من سننيهما وابن أبي حاتم وقال الترّمذيّ: حديثٌ حسن[3] وقد أشار الشيخ محمّد الخضري[4] الى أنّ الإذن لرسول الله ﷺ في القتال كان لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر صفر في السّنة الثّانية من الهجرة[5] ويقول ابن القيّم في زاد المعاد[6]: «وهي أولّ آية نزلت في القتال» ويعلّق على الحديث: «وإسناده على شرط الصّحيحين» ثم يقول رحمه الله تعالى رحمة واسعة[7]: «ثمّ فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال[8]: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ ثمّ فرض عليهم قتال المشركين كافّة. وكان محرّماً ثمّ مأذوناً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثمّ مأموراً به لجميع المشركين».

ولولا دفع الله النّاس بعضهم ببعض: ولولا دفع الله تعالى المشركين بالمسلمين[9].

لهدّمت صوامع: صوامع جمع صومعة، فوعلة، سمّيت بذلك لأنّها دقيقة الرّأس، وهي صومعة النّصارى[10] والصّوامع المعابد الصغار للرّهبان. قاله ابن عبّاس ومجاهد وأبوالعالية وعكرمة والضّحّاك وغيرهم[11].

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٣

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٥

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٥

(٤) نور اليقين ١١٢ هامش رقم ٧٦

(٥) بيّنّا هذه المعاني في كتابنا: تأمّلات في سورة محمّد ﷺ تحت عنوان: معاملة الأسرى في الإسلام (٥٧ - ٨٥) الطبعة الثّانية، مكّة المكرّمة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م

(٦) ٢/ ٦٥

(٧) زاد المعاد ٢/ ٦٥

(٨) سورة البقرة: ١٩٠

(٩) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٤

(١٠) انظر الصّحاح للجوهري: «صمع»

(١١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٦ وطبعة دار الشّعب ٥/ ٤٣٢

وبيع: البِيَع جمع البيعة بالكسر[1] والبيعة أوسع من الصّومعة وأكثر عابدين فيها. وهي للنّصارى أيضاً. قاله أبوالعالية وقتادة والضّحّاك وابن صخر ومقاتل بن حيّان وحصيف وغيرهم[2].

وصلوات: عن ابن عبّاس: الصّلوات الكنائس. وكذا قال عكرمة والضّحّاك وقتادة: إنّها كنائس اليهود، وهم يسمّونها صلوتا[3].

ومساجد: للمسلمين[4].

يذكر فيها اسم الله كثيراً: قيل: الضّمير في قوله: ﴿يذكر فيها﴾ عائد الى المساجد لأنّها أقرب المذكورات. وقال الضّحّاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً[5] ويقول ابن جرير[6]: «وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصّواب قول من قال: معنى ذلك: لهدّمت صوامع الرّهبان وبيع النّصارى وصلوات اليهود وهي كنائسهم ومساجد المسلمين الّتي يذكر فيها اسم الله كثيراً. وإنّما قلنا: هذا القول أولى بتأويل ذلك لأنّ ذلك هو المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم» وقال بعض العلماء: هذا ترقّ من الأقلّ الى الأكثر الى أن انتهى الى المساجد، وهي أكثر عمّاراً، وأكثر عبّاداً، وهم ذوو القصد الصّحيح[7].

يقرّر السّياق أنّ ربّ العزّة والجلال يدافع عن الّذين آمنوا شرّ الأشرار وكيد الفجّار: ﴿وما يعلم جنود ربّك إلاّ هو﴾[8] ومِنْ هؤلاء الّذين دافع الله تعالى

---

(١) الصّحاح: «بيع»

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٦ ودار الشّعب ٥/ ٤٣٢

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٦ ودار الشّعب ٥/ ٤٣٢ وتفسير الطّبري ١٧/ ٢٥/ و١٢٦

(٤) تفسير بن كثير ٣/ ٢٢٦ ودار الشّعب ٥/ ٤٣٣ والجلالين وتفسير الطّبري ١٧/ ١٢٥

(٥) تفسير ابن كثير٣/ ٢٢٦ ودار الشّعب ٥/ ٤٣٣

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٦

(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٦ ودار الشّعب ٥/ ٤٣٣

(٨) سورة المدّثّر ٣١

عنهم ودفع كيد كفّار مكّة محمّد بن عبدالله ﷺ والمؤمنون الّذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيل الله تعالى أذىً بليغاً، كما يقرّر السّياق أنّ الله تعالى لايحبّ كلّ كثير الخيانة شديد الكفر بالله تعالى والكفران للنّعم. ومن البيّن مجيء: ﴿خوّانٍ كفور﴾ في صيغتي المبالغة فعّال وفعول، وفي ذلك دليلٌ على إصرار الخائنين الكافرين على الاستمرار في خيانتهم وكفرهم، ودليلٌ على إساءتهم فهم إمهال الله تعالى لهم الّذين حسبوه إهمالاً.

ومن مظاهر دفاع الله تعالى عن المصطفى ﷺ والمؤمنين إذنه عزّ وجلّ في كتابه العزيز للمؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ في الدّفاع عن أنفسهم وفي القتال، وذلك للمرّة الأولى في هذه السورة الكريمة المدنيّة الّتي نزلت في فترة مبكّرة نسبيّاً بعد الهجرة. وها هو ذا السّياق يقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال قد أذن للّذين يقاتَلون بالدّفاع عن أنفسهم وبالقتال بسبب أنّهم ظُلموا مِنْ قِبَل كفّار مكّة ومَنْ دار في فلكهم من الكافرين، وقد اقترن الإذن بالدّفاع وبالقتال الوعد من الله تعالى الحقّ بأن ينصرهم فإنّه عزّ وجلّ على نصرهم وعلى كل شيء لقدير. ومن البيّن مجيء القول: ﴿لقدير﴾ في صيغة المبالغة: «فعيل» إنّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ على كلّ شيءٍ ولا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

إنّ أولئك المظلومين قد أخرجهم الكافرون من ديارهم مكّة المكرّمة بغير حقّ، لأنّ الكافرين على باطل. وكلّ ذنب المؤمنين أنّهم يقولون ربّنا الله تعالى الّذي لا إله إلاّ هو.

وإنّ نصر الله تعالى المؤمنين المظلومين متمشٍّ مع سنّة الله تعالى الّتي لن تجد لها تبديلاً ولاتحويلاً والّتي مضت في الأوّلين. ومن الّذين نصرهم الله تعالى على أعدائهم الكافرين أتباع عيسى عليه السّلام الّذي ليس بينه وبين محمّد بن عبدالله ﷺ نبيّ، وأتباع موسى عليه السّلام كبير أنبياء بني إسرائيل. إنّ الله تعالى الّذي نصر أتباع موسى وعيسى عليهما السّلام سوف ينصر المؤمنين بقيادة محمّد ابن عبدالله ﷺ وقد تحقّق ذلك الوعد الحقّ. وإنّ السّياق في تبيينه سنة الله تعالى

الّتي لاتتغيّر ولاتتبدّل يقرّر أنّه لولا دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض، ولولا صرف الله تعالى شرور الكافرين بالمؤمنين، ولولا نصر الله تعالى الموحّدين على المشركين منذ الأزل لهدّم المشركون بيوت الله تعالى الّتي أذن عزّ وجلّ أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمه جلّ وعلا وحده لاشريك له. وينصّ السّياق على أماكن العبادة في اليهوديّة والنّصرانيّة والإسلام، لأنّ أتباع هذه الدّيانات السّماويّة الثّلاث موجودون، ولأنّ أماكن عبادتهم موجودة على الرغم من كون دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ ناسخاً لكلٍّ من اليهوديّة والنّصرانيّة، ومن باب الأولى الدّيانات غير السّماويّة. إنّه لو لادفع الله تعالى المشركين بالمؤمنين ونصر الله تعالى الموحّدين على المشركين: ﴿لهدمت صوامع وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ فلم يبق لرهبان النّصارى صوامع، ولا لعامّة النّصارى كنائس، ولا لليهود معابد، ولا للمسلمين مساجد. إنّ كلّ هذه البيوت للعبادة أمر الله تعالى بأن تُبنى وبأنْ يُذكَرَ فيها اسم الله تعالى كثيراً في الصّلوات وفي غير الصّلوات.

وقد نصر الله تعالى أولئك المؤمنين لأنّهم نصروا الله تعالى بالاستمساك بالتّعاليم الّتي أوحاها الله تعالى الى رسل الله تعالى إليهم. وكما نصر الله تعالى المؤمنين السّابقين ينصر المؤمنين اللاّحقين. فها هو ذا ربّ العزّة والجلال يعد بالنّصر، ووعده الحقّ، وقوله الصّدق: ﴿ولينصرنّ الله من ينصره. إنّ الله لقويٌّ عزيز﴾ وقد صدق الله تعالى المؤمنين وعده، فنصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. إنّ المصطفى ﷺ قبل أن يلحق بالرّفيق الأعلى كانت جزيرة العرب، وهي أكبر شبه جزيرة في الدّنيا، فهي مثلاً أكبر من شبه القارة الهندية، كانت جزيرة العرب ترفرف عليها راية التوّحيد من أقصاها الى أقصاها، وتتّحد وتتوحّد ربّما للمرّة الأولى في التّاريخ. وإنّه لم يكد يمضي قرنٌ واحدٌ من الزّمان على وفاة المصطفى ﷺ حتى كانت راية التوحيد ترفرف على الدولة الاسلامية الممتدّة دون انقطاع من حدود الصيّن شرقاً الى حدود فرنسا غرباً. ولاتسل عن